المجدد المنتظر...

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

كان المسلمون في الماضي كلما حزبهم الأمر، وبلغ اليأس بهم كل مبلغ، وجدوا في خبر المهدي الذي يأتي آخر الزمان، أو المجدد الذي يبعث على رأس كل مائة سنة، ما يحيي فيهم ميت الأمل، ويبعث فيهم الرجاء بعد اليأس.

وهاهم أولاء الآن قد حزبهم الأمر بعالم يحصل مثله في ما ضيهم، فأصبحوا من الضعف بحيث طمع فيهم من لا ناصر له وغلب عليهم كل مغلب، وشمخ عليهم من ضربت عليه الذلة والمسكنة، فهم في أشد حاجة إلى من ينهض بهم من هذا الضعف فيصلح ما فسد من أمرهم، ويجدد ما بلي من أحوالهم، ويقضي على ذلك الجمود الميت، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، ويقود جنود الإصلاح إلى النصر، وينظم صفوفهم في الحرب القائمة بينهم وبين دعاة الجمود، حتى ينتظم ما تفرق من صفوفهم، وترتفع في الخافقين أصواتهم.

فهل يقوم لهم بذلك ما يرجونه من المهدي المنتظر، أو من المجدد الذي يبعث إليهم في رأس كل مائة سنة؟ والجواب عن ذلك يجرنا إلى النظر فيما مضى من أمر الفكرتين في المسلمين.

لقد نبتت فكرة المهدي المنتظر بين فرقة الشيعة من المسلمين فانتظروه شخصا من آل بيت النبوة يوافق اسمه اسم النبي صلى الله عليه وسلم، ويوافق اسم أبيه اسم أبيه أيضا، فيكون إماما معصوما، ويكون مؤيدا فيما يقوم به من الله تعالى، ويكون له حكم المسلمين جميعاً، فيرجعون إليه في أمور دينهم ودنياهم.

ولا شك أن هذه أمور تغري النفس كل الإغراء، وتثير في كل شخص أن يكون المهدي المنتظر، لتكون له تلك القداسة الدينية، وليكون له ذلك السلطان على المسلمين، وكل ما كان من هذا القبيل يدخل فيه الاحتيال، ويستعان عليه بالتصنع، وما يدخل فيه الاحتيال لا يتطلى عند كل الناس، وما يستعان عليه بالتصنع لا يلبث أن يظهر أمره، فيفترق فيه المسلمون حيث يراد اجتماعهم، ويكون وسيلة خصام، لا وسيلة سلام ووئام.

وقد قامت محاولات كثيرة في ذلك كان الفشل نصيبها كلها ولم يستفد المسلمون منها شيئا، بل كانت تزيدهم فرقة إلى فرقتهم وكان الخلاف يتسع بها بينهم، ولم تقدم محاولة منها ما يطلبونه من إصلاح، ولم توصلهم إلى ما يريدونه من تجديد.

وكانت أول محاولة في ذلك من أبي جعفر المنصور ثاني ملوك بني العباس، وكان من قبله من بني العباس قد وضعوا تنبؤات في ظهور أمرهم، وفي ظهور المهدي من بينهم، ومن ذلك ما روي عن ابن عباس — والظاهر أنه موضوع عليه — أن أم الفضل حدثته أنها مرت بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: إنك حامل بغلام، فإذا ولدت فأتيني به، فلما ولدته أتت به النبي صلى الله عليه وسلم فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى، وأنباه[1] من ريقه وسماه عبد الله، وقال: اذهبي بأبي الخلفاء. فأخبرت العباس — وكان رجلا لباسا — فلبس ثيابه، ثم أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بصر به قام فقبل بين عينيه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم. فقال: هو ما أخبرتك، هو أبو الخلفاء حتى يكون منهم السفاح، حتى يكون منهم المهدي، حتى يكون منهم من يصلي بعيسى ابن مريم.

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: اللهم انصر العباس وولد العباس — قالها ثلاثا — ثم قال: ياعم، أما شعرت أن المهدي من ولدك موفقا راضيا مرضيا

وكان أبو جعفر المنصور يسمى عبد الله، وكان له ابن يسمى محمدا، فأراد أن يجعل منه المهدي الذي مهدوا لظهوره بهذه التنبؤات، وكان أبو العباس السفاح قد بايع لأخيه أبي جعفر من بعده، ثم لابن أخيه عيسى بن موسى من بعد أبي جعفر، فلما صار الأمر إلى أبي جعفر المنصور عمل على أن يخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، وأن يضع مكانه ابنه محمدا، فلقبه المهدي. وأشاع حوله تلك الأحاديث والتنبؤات التي ترمي إلى تقديسه وتعظيمه، وتشير إلى أنه يقوم بالأمر فيملأ الأرض عدلا، ثم أخذ يرغب الناس فيه، ويجتهد في حمل وجوه دولته على الالتفاف حوله

(١) أي صب ريقه في فيه كما يصب الماء في فم الصبي، وهو أول ما يحلب عند الولادة

فلما تم له ما أراد من ذلك جعله من فعل الله تعالى ، وأنه هو الذى أشرب قلوب الناس مودة المهدى ، وقسم فى صدورهم محبته ، فصاروا لا يذكرون إلا فعله ، ولا ينوهون إلا به ، ولا يجرى على ألسنتهم إلا ذكره ، لمعرفتهم إياه بعلاماته واسمه ، ثم أقدم على الغاية التى أرادها من ذلك ، فأراد أن يخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، ويولى مكانه ابنه المهدى ، تنفيذا لما أراده الله من ولايته ، لأنه زعم أنه أمر تولاه الله وصنعه ، ولم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ، ولا مؤامرة ولا مذاكرة .

ولكن عيسى بن موسى لم ينطل عليه شىء من ذلك ، ولم يذعن لهذا الاحتيال الظاهر من عمه أبى جعفر ، ورأى أنه لامهدى يراد ، وإنما تراد ولاية العهد لا غير ، والباطل يظهر أمره وإن حاول الناس إخفاءه، والحق لا يأتى بمثل هذا الاحتيال والتصنع ولا يقوم أمره على نقض العهود ، ولا تستبيح دعوته الحنث فى الأيمان

فلم يزل عمه أبو جعفر يأخذه تارة بالقهر ، وتارة بالإغراء ، حتى خضع لما أراد ، وترك ولاية العهد لابن عمه المهدى ، فقام بالأمر بعد أبيه أبى جعفر ، وإذا هو ملك كغيره من الملوك ، لم يملأ الأرض عدلا ، ولم يحقق للمسلمين أملا مما يرجونه من المهدى المنتظر ، بل سار فى الطريق التى سلكها من مضى قبله من ملوك بنى العباس وبنى أمية ، وسلكها من أتى بعده من الملوك ولم يكن ما قام به المنصور من الدعاية له إلا أمانى خادعة ، واحتيالات لما أراده من قيامه بالأمر بعده .

وكذلك كان أمر كل من ادعى أنه المهدى المنتظر قديما وحديثا ، يحاول فى أمره أن يصله بأمر السماء ، ليأخذ الناس بدعوى الولاية ، وادعاء التأييد من الله تعالى ، ويحملهم على ما يريده من إذعانهم له ، حتى يقيم فيهم ملكا له ولأولاده ، أو يجعل له سلطة دينية عليهم ، فلا ينخدع به فى ذلك إلا من تغطى عليهم خديعته ، ويبقى جمهور المسلمين بعيدا عنه ، لا يؤمن بخداعه ، ولا يرى أن دعوته هى الدعوة التى يرجوها .

لأنهم يرجون إصلاحا لا ملكا ، ويريدون مصلحا لا يبغي لنفسه من الإصلاح شيئا ، ولا يجعله وسيلة لمآرب شخصية ، دنيوية كانت أو دينية ، حتى تكون دعوته خالصة لوجه الإصلاح لا يشوبها شك ، ولا تشوهها ريبة .

ولأنهم يرجون الإصلاح من طريق العلم والاجتهاد ، ويريدون أن يؤمنوا به بالدليل والبرهان ، لا بتلك التنبؤات الموضوعة ، ولا بدعوى الولاية والتأييد من الله تعالى ، لأن الإسلام قد أغلق باب الإقناع بهذه الوسائل بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفتح باب الاجتهاد والإصلاح ، وجعل وسيلته الإقناع بالدليل ، حتى يؤمن الناس به عن بصيرة ، ويأخذوه عن علم لا عن تقليد ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه دينهم ، وكما كان الأصحاب يأخذون دينهم عنه .

ولأنهم يرجون مصلحا ينهض بهم والزمان مقبل ، والدنيا لا يزال فيها أمل ، فيستردون به ما ضاع من مجدهم ، ويعيدون به ما ذهب من عزهم ، ويكون لهم فى ذلك أمل كأفسح ما يكون الأمل ، ويكون لهم فيه رجاء كأقوى ما يكون الرجاء . ويواتيهم فيه الزمان كما واتاهم من قبل .

ولا يرجون مصلحا يأتى لهم فى آخر الزمان ، والدنيا مدبرة والآخرة مقبلة ، فلا يكون أمامهم من فسحة الزمان ما يشيدون فيه كما شيد آباؤهم ، ولا يكون عندهم من بعيد الأمل ما ينهض بهم كما نهض بسلفهم .

وهذا إلى أن أخبار المهدى المنتظر لا يتفق المسلمون على التصديق بها ، بل يذهب كثير من العلماء إلى إنكارها ، ويرون أنها تنبؤات وضعت لأغراض سياسية ، وقد أكل الله الدين ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقطع ببعثته حجة السماء على الأرض ، ولم يبق بعده حاجة إلى اتصال بينهما ، كالاتصال الذى تقوم عليه فكرة المهدى المنتظر .

أما فكرة المجدد الذى يبعثه الله فى كل جيل من أجيال المسلمين ، فلا تقوم على ما تقوم عليه فكرة المهدى المنتظر من دعوى الولاية ، وادعاء التأييد من الله تعالى ، ولا يقصد صاحبها ملكا بين الناس ، ولا سلطة دينية ينتفع بها فى دنياه ، ولا يلزم أن يكون شخصاً من آل بيت النبوة ، وإنما هو شخص من عامة المسلمين ، كمل عقله ، وسما علمه ، وعرف الداء والدواء ، وآمن بالتجديد والإصلاح ، فقام يدعو إلى ذلك بالنظر والاجتهاد ، ويؤيده بالدليل والبرهان ، ويضحى فيه بنفسه وماله ، ويستهين فيه بكل ما يلقى من كيد ، وما يصادف من عناء ، ويرجو من ذلك كله أن تظهر دعوته ، وينتصر حقه على باطل غيره ، فترتفع راية الإصلاح ، وتنتشر دعوة التجديد ، ولا يكون له بين المسلمين إلا شرف الجهاد ، وحسن الذكرى .

وتلك كانت غاية الأنبياء والرسل من دعوتهم ، من بعثة نوح عليه السلام ، إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقول نوح لقومه فى الآية (٧٢) من سورة يونس (فإن توليتم فما سألتكم من